

التحرير والتنوير

إذ فسر الحاجة بأن يقرأ السلام على أسماء لأنه أراد بالحاجة الرسالة وهذا جري على رأي الزمخشري والمحققين من عدم اشتراط تقدم جملة فيها معنى القول دون حروفه بل الاكتفاء بتقدم ما أريد به معنى القول ولو لم يكن جملة خلافا لما أطلال به صاحب مغني اللبيب من أبحاث لا يرضاها الأريب أو لما يتضمنه عنوان (الرسل) من إبلاغ رسالة .

(قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإننا بما أرسلتم به كافرون [14]) حكاية جواب عاد وثمود لرسولهم فقد كان جوابا متماثلا لأنه ناشئ عن تفكير متماثل وهو أن تفكير الأذهان القاصرة من شأنه أن يبنى على تصورات وهمية وأقيسة تخيلية وسفسطائية فإنهم يتصورون صفات الله تعالى وأفعاله على غير كنهها وقيسونها على أحوال المخلوقات ولذلك يتمثل في هذا حال أهل الجهالة كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) أي بل هم متماثلون في الطغيان أي الكفر الشديد فتملي عليهم أوهامهم قضايا متماثلة .

ولكون جوابهم جرى في سياق المحاورة أتت حكاية قولهم غير معطوفة بأسلوب المقابلة كما تقدم عند قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) فإن قول الرسل لهم : لا تعبدوا إلا الله قد حكي بفعل فيه دلالة على القول وهو فعل (جاءتهم) كما تقدم آنفا .

فقولهم (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) يتضمن إبطال رسالة البشر عن الله تعالى . ومفعول (شاء) محذوف دل عليه السياق أي لو شاء ربنا أن يرسل إلينا لأنزل ملائكة من السماء مرسلين إلينا وهذا حذف خاص هو غير حذف مفعول فعل المشيئة الشائع في الكلام لأن ذلك فيما إذا كان المحذوف مدلولاً عليه بجواب (لو) كقوله تعالى (فلو شاء لهداكم أجمعين) ونكتته الإبهام ثم البيان وأما الحذف في الآية فهو للاعتماد على قرينة السياق والإيجاز وهو حذف عزيز لمفعول فعل المشيئة ونظيره قول المعري : .

وإن شئت فزرع أن من فوق ظهرها ... عبيدك واستشهد إلهك يشهد وتضمن كلامهم قياساً استثنائياً تركيبه : لو شاء ربنا أن يرسل رسولا لأرسل ملائكة ينزلهم من السماء لكنه لم ينزل إلينا ملائكة فهو لم يشأ أن يرسل إلينا رسولا . وهذا إيماء إلى تكذيبهم الرسل ولهذا فرعوا عليه قولهم (فإننا بما أرسلتم به كافرون) أي جاحدون رسالتكم وهو أيضا كناية عن التكذيب .

(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي

خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يحدون [15] فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون [16] (بعد ن حكي عن عاد و ثمود ما اشترك فيه الامتنان من المكابرة والإصرار على الكفر فصل هنا بعض ما اختصت به كل أمة منهما من صورة الكفر وذكر من ذلك ما له مناسبة لما حل بكل أمة منهما من العذاب .

رفضوا أنهم المقتضية (ملائكة لأنزل ربنا شاء لو قالوا) جملة على تفریع والفاء A E دعوة رسولهم ولم يقبلوا إرشادهما واستدللهما .
و (أما) حرف شرط وتفصيل وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) في سورة البقرة .
والمعنى : فأما عاد فمنعهم في الكبر أي التعاطف واحتقار الناس فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل : استجاب والتعريف في (الأرض) للعهد أي أرضهم المعهودة . وإنما ذكر من مساوئهم الاستكبار لأن تكبرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله